من أبرز معالم المدينة وأهمها..

# الجامع الكبير بذي السفال..تاريخ عريق ومكانة عظيمة في نفوس الناس

**لازلنا في مدينة ذي السفال ومنها نتواصل مع التاريخ الذي يشع من مبانيها القديمة وحاراتها وأسواقها الشعبية حيث سبق وتحدثنا في عدد سابق عن السوق القديم في هذه المدينة الحضارية التي عاصرت دويلات وحضارات سابقة أسهمت فيها إسهامات متعددة وكثيرة وطابعتها بعادات وتقاليد شتى واستطاعت هذه المدينة أن تقتبس من تلك الدويلات مزايا وأشياء متعددة وهذه الأشياء والمزايا جعلتها متنوعة وهو ما تظهر المدينة ذات الفرادة في عيون زائريها وإن كانت هذه المدينة التاريخية العريقة لم تنل حقها من الاهتمام والرعاية ولم تصل بعد شهرتها إلى جمهور سياحي عريض فمازالت أهمية هذه المدينة وحضارتها مقصورة فقط لدى الأكاديميين والمختصين وقلة ربما من المثقفين حتى أن هذه المدينة باتت في أسوأ حالتها منذ أن بدأت الحياة تدب فيها قبل عقود طويلة من الزمن**

استطلاع وتصوير/عبدالباسط النوعة

ولعل أبرز المشكلات التي تواجهها هذه المدينة تتمثل في انعدام شبكات الصرف الصحي وقد ترتب على ذلك وجود العديد من مياه الصرف الصحي تعبث في أماكن عديدة وتحيلها إلى مصادر إزعاج ومواطن للأمراض التي تؤذي السكان قبل الزوار مع أن أجزاء كبيرة من المدينة أصبحت مرصوفة واسمنتية إلا أن المجاري تطفو فوق تلك المشاريع التي نالتها المدينة من خلال تلك المشاريع والإمكانات الضخمة التي سخرت لمحافظة إب بمناسبة احتضانها للفعاليات الاحتفائية للعيد الوطني للجمهورية اليمنية بيد أن حصة ذي السفال اقتصرت فقط على الرصف والاسمنت في حين أن المجاري كانت المدينة بحاجة ماسة إلى مشروع يحل هذه المشكلة.

## مشاريع رصف ناقصة

الأدهى من ذلك إقامة مشاريع الرصف دون مراعاة المجاري وأصبحت المجاري تطفو لمسافات طويلة على تلك المشاريع التي ربما سهلت عملية جريانها مع أن المدينة كما يقول الأهالي كانت تحوي سراديب تحت الأرض استخدمت لتصريف مياه المجاري قديما ولا زالت بعض هذه السراديب موجودة إلى الآن كأحد أبرز الشواهد التاريخية على حضارة الإنسان اليمني قديما وسعيه إلى تطوير حياته الاجتماعية بأسلوب راق في زمن كانت البدائية فيه سمة العصر وها نحن نعيش في القرن الحادي والعشرين بإمكانياته الهائلة ووسائله المتقدمة وذي السفال التي كانت تحوي مشروعا لتصريف المجاري قبل عشرات السنين تفتقد لنفس المشروع في الزمن المعاصر..

ولعلنا اليوم نحاول إبراز أحد المعالم التاريخية التي تحتويها مدينة ذي السفال والتي تعتبر من أهم المعالم في المدينة حيث يعتبر جامعها الكبير من أقدم المساجد في اليمن وقد اختلفت الروايات في تاريخ بنائه فالبعض يقول أن بناءه يعود لفترة حكم الخليفة العباسي عمر بن عبدالعزيز وآخرون إلى ما قبل ذلك بكثير وربما إلى عصر الخلفاء الراشدين.

## تاريخ وأهمية

وللمسجد ثلاث بوابات ومحرابه منقوش وهو من الخشب كذلك يحوي المحراب بعضا من نقوش وزخارف قرآنية بديعة والمسجد من دورين في إحدى جهاته التي تقع على يمين المحراب ويستخدم الدور الأسفل كمخزن للجامع ويحوي الجامع أيضا على صرح صغير وكان يحوي أيضا بركة للوضوء سقفها بالاسمنت وتحويلها إلى خزان للمياه وتم بناء حمامات جديدة بدلا عن الحمامات القديمة التي لا تزال موجودة ولكنها شبه مهدمة وأصبحت موطنا للقمامة والأوساخ وأصبح منظرها مشوها للجامع.

وعن أهمية هذا الجامع يقول الأخ أحمد محمد النوعة مدير فرع هيئة الحفاظ على المدن التاريخية بمحافظة إب أن المسجد كان الوحيد في المدينة وما جاورها من قرى الذي يقام فيه صلاة الجمعة وهذا إلى فترة قريبة ربما لا تتجاوز الخمسين أو الأربعين عاما وكان الناس من المدينة وتلك القرى يكتظون بالمسجد في يوم الجمعة في جو من التآلف والتعارف قلما تجد له مثيلا في هذا الزمان ولهذا ارتبط الناس لا سيما ممن بلغت أعمارهم الستين أو السبعين عاما ارتباطا وثيقا بهذا الجامع ومع انتشار الجوامع في المدينة والقرى وأصبحت صلاة الجمعة تقام في كل قرية إلا أن هناك أناساً لا يزالون يقصدون هذا الجامع والصلاة فيه خاصة في شهر رمضان حيث تجد الجامع يعج بالكثير من الناس وفي مختلف المناطق والقرى في المديرية.

## بوابات منقوشة

سطح الجامع يحوي في أجزاء فيه وتحديدا في منطقة المحراب أو مقدمة الجامع قبابا صغيرة تشكل جمالية فريدة لهذا الجامع وهندسة معمارية إسلامية بامتياز كذلك بوابته الخشبية الواقعة على يسار المحراب والتي تؤدي مباشرة إلى الخارج تحوي أعلاه على خشب منقوشة عليه بعض الآيات والكلمات وربما الأرقام طمست بعض الحروف والكلمات ولكن لا يزال البعض منها واضحا كذلك ما يميز تلك البوابة عن البوابتين الأخريتين هي الظلة الحجرية المقببة التي بنيت بشكل هندسي رائع لتحمي تسرب المياه أو الأشياء غير المرغوب بها إلى الجامع ترتكز على عمودين حجريين تعلوهما نصف دائرة عقود من ثلاث جهات وهذ تلك المدن التاريخية وقدرتها على مقاومة التضاريس وتقلبها الطبيعية وتقادم السنون وهو خير مثال على ذلك الإبداع المعماري القوي حتى وأن كانت المواد المستخدمة بدائية وبسيطة مثل الطين والتي اعتمدت عليها عدد من المدن التاريخية اليمنية أبرزها صنعاء القديمة وشبام حضرموت ومدينة زبيد التاريخية وجميعها أصبحت الآن تراثا عالميا وإنسانيا تعني به البشرية خاصة بعد أن تم إدراجها ضمن قائمة التراث العالمي اليونسكو

## خلفية تاريخية

اثنا تجولنا في مختلف أنحاء الجامع ومرافقه التقينا أحد كبار السن العارفين بتاريخ هذا الجامع وأهميته وهو القاضي علي أحمد بن سعيد الجنيد والذي أكد أن تاريخ بناء الجامع يعود للعصر الإسلامي الأول حيث تم بناؤه عقب جامع الجند الشهير الذي بناه الصحابي الجليل معاذ بن جبل وأن الفترة بين بناء جامع الجند والجامع الكبير بذي السفال متقاربة وتقدر الفترة الزمنية التي تفصل الجامع الكبير عن جامع الجند من ٥-١٠ سنوات تقريبا حسبما توارث الآباء والأجداد وهذا الكلام أشار إلى أنه سمعه من والده الذي بدوره سمعه ممن سبقوه عمرا وسنا.

وأضاف الجنيد: كان الجامع فيما مضى عبارة عن مسجد صغير بني وسط مجموعة من المنازل القديمة في المدينة وكان المسجد الصغير يفي بحاجة الناس بمعنى يكفي لهم ولكن مع تعاقب السنوات تكاثر الناس وأصبح المسجد لا يتسع للمصلين خاصة أنه كان المسجد الوحيد في المدينة والمناطق والقرى المجاورة الذي تقام فيه صلاة الجمعة وكان الناس يضطرون أحيانا للصلاة خارج المسجد الأمر الذي شكل صعوبة ينبغي تجاوزها وذلك من خلال التوسعة السريعة للجامع مكان ذلك فعلا على يد الغساسنة حيث قاموا بالتوسعة مستخدمين الأحجار المنشورة التي تظهر في إحدى واجهات الجامع كما قاموا ببناء الصومعة واستمر الجامع على هذه التوسعة فترة من الزمن إلى أن أصبح بحاجة إلى توسعة أخرى وكان ذلك على يد السيد عماد الدين والذي كان يسكن قرية الدخلة الواقعة على إحدى ضواحي جبل الدول المطل على المدينة حيث قام هذا السيد ببناء الجهة القبلية كاملة وجعل سطح تلك الجهة كاملا كله من القباب ولم يستخدم الأخشاب وكذلك بناء البوابة الواقعة على يسار القبلة وجاء من بعده أحد مشائخ العلم المشهورين في إحدى الفترات الزمنية ويدعى الولي عماد الدين يحمل نفس اسم الأول لكن شخصا آخرا مختلفا تماما وتعاون مع شخص آخر من رجال الدين يدعى علقمة وقاما سويا ببناء الجهة الواقعة على يمين المحراب والتي تتألف من طابقين الأول سماسر والثاني تكملة للجامع، ولا يزال قبرا هاذين الشيخين قائمين، حيث يقع قبر الشيخ عماد الدين في قرية التربة ويحوي قبره على قبة كبيرة - مسجد شهير-، أما قبر الشيخ علقمة فهو موجود في إحدى المباني القديمة الموجودة على أطراف المقبرة الكبيرة في المدينة وتحديداً أعلى من مستشفى المدينة وهي بناية كبيرة ربما أنها كانت سكنا والقبر من داخله وهذا المبنى مهجور وشبه مهدم.

## المئذنة

● وأوضح الجنيد أن المسجد ظل على حاله فترة من الزمن إلى أن جاء القاضي عبدالرحمن الجنيد وعمل على توسعة الجامع من عدة جهات وبناء مبنى صغيراً على صرح الجامع ويستخدم هذا المبنى الذي يحوي الكثير من العقود الآن لحفظ - نعش دفن الموتى- ويستخدم عادة للصلاة.

وعن المئذنة يقول الجنيد: المئذنة بناها الغساسنة وكانت المئذنة الأولى في مديرية ذي السفال، وهذه المئذنة لا زالت على حالها دون زيادة أو نقصان وهي قوية جداً لأنها بنيت من الأحجار وتقع في مؤخرة الجامع في الزاوية اليمنى من بوابة الجامع الرئيسية، كما كان المسجد يحوي غرفتين ●منزلتين- للوافدين وعابري السبيل وتم هدمهما قبل عدة سنوات وتحديداً عندما تم ردم البركة وجعلها خزاناً للمياه وتم بناء حمامات جديدة بعد أن أصبحت الحمامات القديمة في حالة سيئة جداً وتم تمويل هذا المشروع على نفقة هائل سعيد أنعم، كما تم إعادة تأهيل السطح -سطح الجامع- والذي كان دائماً ما يسمح بتسرب مياه الأمطار إلى الداخل.

● وبجوار الجامع توجد بعض الآثار الواضحة لحمام بخاري قديم أصبح الآن مقلباً للنفايات وبقايا الأطعمة، وهنا يقول الجنيد: إن هذا الحمام لا علاقة له بالجامع، حيث بناه عبدالله الوزير وكان حماماً جميلاً سطحه عبارة عن قباب صغيرة وكان هذا الحمام هو الوحيد في المديرية، وقد ظل هذا الحمام يعمل إلى ما قبل ثلاثين عاماً تقريباً وبعد قيام الثورة اليمنية المباركة تعطل الحمام بيد أن المجلس المحلي آنذاك قام بترميم الحمام وإعادة تأهيله وتشغيله وما هي إلا سنوات قليلة حتى توقف عن العمل وإلى الآن لم يتم تشغيله، بل على العكس هدم وخرب وأصبح بالشكل الذي هو عليه الآن، وكانت مياه الحمام تأتي من نفس الساقية الذي تأتي من مياه الجامع.

## إضاءة

● إذن الجامع الكبير بذي السفال حضارة عظيمة وتاريخ عريق وتنوع في المعمار والأساليب ولعل التوسعات العديدة التي حدثت للجامع تعطي تفسيراً واضحاً وصريحاً للتنوع الذي يظهر عليه الجامع والأشكال المختلفة التي تبدو عليه واجهاته وأحجاره هذا التنوع أضاف له المزيد من الأهمية والجمال، ولكن ينبغي أن يتم إزالة بعض المظاهر المشوهة لهذا الجامع لعل أبرزها النفايات والأوساخ الواقعة جوار الحمامات القديمة والحمامات الجديدة، فضلاً عن الأوساخ الموجودة في الحمام ولعل بناء حمامات جديدة بمثل جانباً سيئاً وإن كان القصد من فعل الخير ولكن كان الجدير فعله هو إعادة تأهيل الحمامات القديمة وترميمها بدلاً من إهمالها وتركها تصارع الخراب وتتحمل النفايات والأوساخ التي لا تؤذي الحمامات بقدر ما تؤذي المصلين ورواد المسجد.

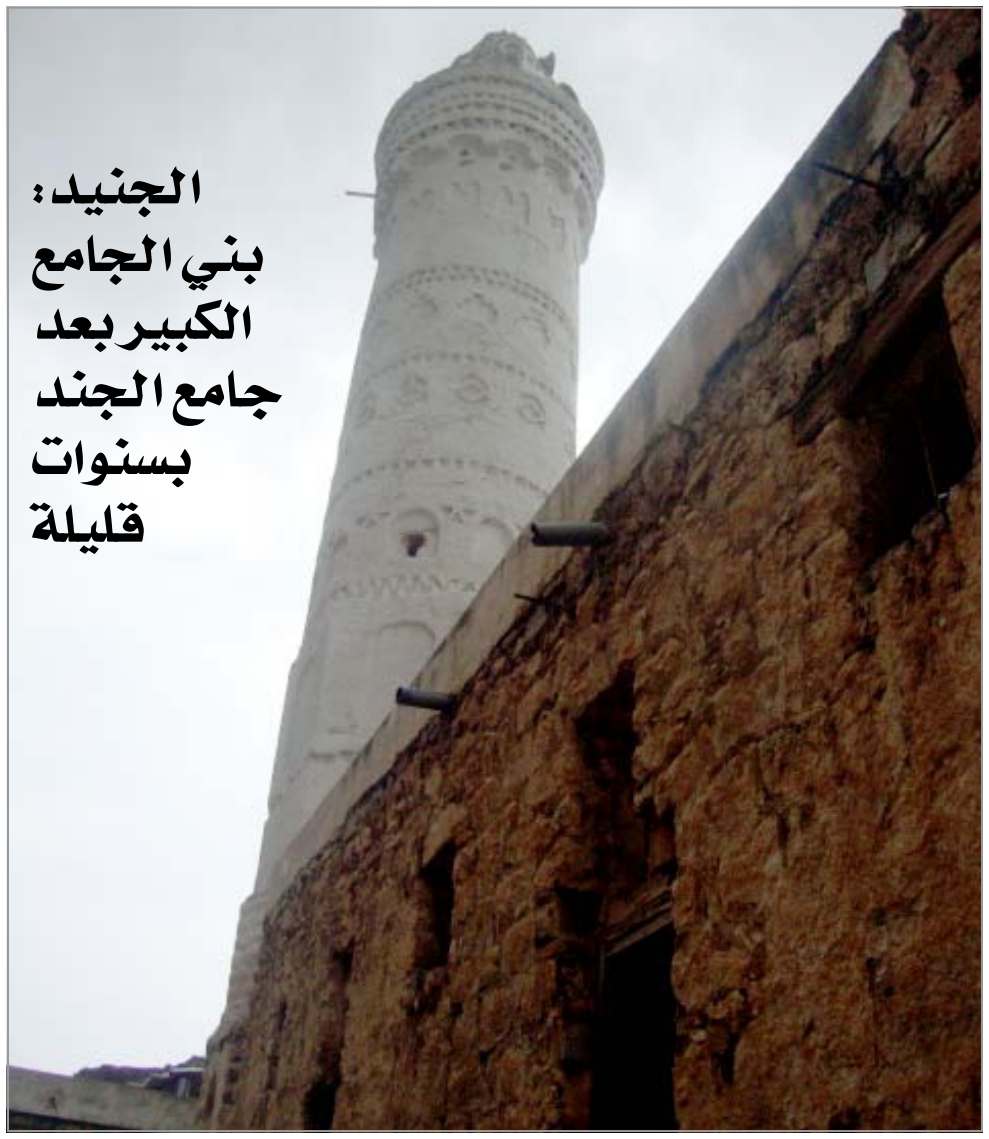

## الجنيد: بني الجامع الكبير بعد جامع الجند بسنوات قليلة

## الحمامات البخارية المجاورة للجامع تحولت إلى مكب للنفايات والقمائم